الفلسفة البراغماتية و وليم جيمس

أ-سمات الفلسفة المعاصرة و مكانة البراغماتية :

حدثت كثير من التطورات العلمية و الفلسفية بعد كانط ، و قد تطوّرت الفلسفة بعده في اتجاهيها التقليديين ؛ الإتجاه المثالي الذي تأثّر ممثّلوه كثيرا بفلسفة كانط المثالية النقدية و الإتجاه التّجريبي الذي تأثّر ممثلوه بالتطوّرات العلمية و خاصة في العلوم الطّبيعية و علوم الحياة ، فقد ظهرت نظرية التطوّر على يد داروين في منتصف القرن التاسع عشر و تمخّض عنها فلسفات تطوّرية كما ظهرت نظريات فيزيائية كثيرة كان أهمّها نظريات الكمّ (الكوانتم) و النظرية النسبية .

وقد أثّرت هذه النظريات العلمية أبلغ تأثير على الفلسفات المادية التي ظهرت في القرن 19 و القرن 20 حيث بدا الفلاسفة أكثر تواضعا و أكثر إيمانا بنسبية الحقيقة مثل العلماء ، كما بدؤوا ينفرون من إقامة الأنساق الفلسفية الشاملة ، فغدت فلسفاتهم تهتمّ بالمنهج أكثر من اهتمامها بالمذاهب الشاملة ، ومن ثمّ تركّز اهتمامهم في معالجة القضايا الجزئية العملية و إن لم يفقدوا في معالجتهم لهذه القضايا نظرتهم الفلسفية العقلية الشاملة التي تتميّز بسعة الأفق و القدرة على استشراف أبعاد المستقبل .

و رغم كثرة الفلسفات المعاصرة إلّا أن البراجماتية تعتبر لأسباب عدية أهمّها جميعا ؛ فهي الفلسفة التي عبّرت عن واقع المجتمع الأمريكيّ الجديد و عن نجاح أفراده في التكيّف مع البيئة الجديدة التي انتقلوا إليها منذ اكتشاف أمريكا و نزولهم إليها و محاولتهم مواجهة كلّ الظروف الطبيعية و البيئية الصّعبة و التغلّب عليها و تحويلها إلى أدوات أدّت إلى هذا التقدّم الهائل الذي نشهده حتّى الآن ، كما أنّها و بسبب تأثّر أتباعها بنظرية التطوّر سعى أتباعها إلى التطوّر و التجدّد و النظر دائما إلى المستقبل و البحث عن عوامل النجاح فيه.

ب-مفهوم البراجماتية :

ظهر مصطلح البراجماتية في الفلسفة أوّل ما ظهر لدى تشارلز بيرس (1839-1914) الفيلسوف و العالم الأمريكيّ و ذلك في مقالة كتبها عام 1878 بعنوان "كيف نجعل أفكارنا واضحة" و قد اشتقّها من الكلمة اليونانية PRAGMA و هي بمعنى " العمل" التي تؤخذ منها كلمة " عملي"

، وقد أشار بيرس في هذه المقالة إلى أنّ (عقائدنا هي في الواقع قواعد للعمل و الأداء) و أننا لكي ننشء فكرة معيّنة فكلّ ما نحتاج إليه هو تحديد أي سلوك و أيّ فعل تصلح لإنتاجه ، و أننا لكي نتأكّد من وضوح أيّ فكرة علينا أن ننظر في الآثار و النتائج التي تحقّقها في الواقع سواء كانت هذه النتائج مباشرة أو غير مباشرة.

وربّما لم يكن "بيرس" يتوقّع النجاح الكبير الذي سيلاقيه هذا المبدأ الجديد ، فعلى الرّغم من أنّ هذا المبدأ قد ظلّ مهملا طيلة عشرين سنة إلّا أنّه بمجرّد أن انتبه إليه " وليم جيمس" (1842-1910) و هو أعلام البراجماتية و بعثه من مرقده و أخرجه ثانية إلى حيّز الوجود و أضاف إليه و نشره بين الناس ، حتّى أصبحت " البراجماتية" كلمة دارجة على كلّ لسان.

وقد ظهر فيلسوف ثالث هو "جون ديوي" (1859-1952) عمّق هذا المبدأ و نشر فيه مؤلّفات كثيرة و شرح تفاصيله حتّى غدت البراجماتية أشهرت التيارات الفلسفية في العصر الحديث.

ج- نظرية الصدق عند البراجماتيين:

فماذا كان يقصد بيرس بهذا المبدأ و ما هو جوهر التجديد الفلسفي الذي قدّمه البراجماتيون الثلاثة (بيرس-جيمس-ديوي)؟

لقد قصد بيرس ببساطة أنّ معيار صدق الفكرة و مدى وضوحها إنّما يتوقّف على ما تحقّقه في الواقع العمليّ من نتائج ملموسة ؛ خذ مثلا فكرة "الكهرباء" فنحن لا نعرف نحو دقيق ماهية الكهرباء في حدّ ذاتها ، أي انّنا لا نعرف ماهية عقْلية للكهرباء و كلّ ما نعرفه إنّما تحدّده آثاره العملية المترتّبة عليها و التي نلمسها جميعا في حياتنا اليومية .

ولقد اشترك البراجماتيون الثلاثة في التأكيد على هذا الأصل الأساسيّ حتّى وصل بهم الحدّ إلى اعتبار النّقاش الذي كان سائدا طيلة عشرات القرون حول مصدر المعرفة : العقل أم الحسّ ؟ غير ذا معنى بل مدعاة للتهكّ و السخرية ، لأنّه رغم النقاش الطويل لم يؤدّ الأمر إلى حسم مادّة السؤال ، ولذلك حاول البراجماتيون تجاوز الإشكالات التي كانت تطرحها الفلسفة التقليدية و التي كانت قائمة على " ما كان " أو " ما يكون" إلى " ما سيكون" ؛ أي أنّ فائدة النقاش هو ما سيؤدّيه للبشرية من تحوّل و

تقدّم و نتائج و ليس ما سيستنتجه الفلاسفة من أنساق و قوالب و مفاهيم فلسفية مجرّدة و غير قابلة للتحقّق و التّطبيق.

وهذا هو جوهر التجديد الذي أدخله البراجماتيون على نظرية المعرفة في الفلسفة ؛ إنّه الربط بين الأفكار و المعتقدات و النتائج التي تحقّقها تلك الأفكار في حياة من يؤمن بها .

د-وليم جيمس يوسّع مفهوم النّفع البراجماتي:

إنّ المنهج البراجماتي إذن هو طريقة للفصل في المنازعات الميتافيزيقية التي شغلت بال الفلاسفة السّابقين و على رأسهم كانط ، فقد وجد البراجماتيون أنّه لا توجد طريقة تقضي على تلك الفلسفات الميتافيزيقية التي اقتصرت على الحديث عمّا وراء هذا المنهج الطبيعيّ أنجح من من أن نتساءل : أيّ نتائج عملية تتحقّق من خلال الإعتقاد بأيّ من الأفكار أو المعتقدات التي تتردّد في هذه الفلسفات ؟

لقد قال جيمس في كتابه " البراجماتية" إنّ مشكلات ميتافيزيقية مثل: هل العالم واحد أم متعدّد ؟ هل الإنسان مسيّر أم مخيّر ؟ أهو مادّي أم روحانيّ ؟ لا تعدّ مشكلات تستحقّ الوقوف عندها ؛ لأنّ أيّ فكرة سنعتقد فيها حول تلك المشكلات قد تحمل في طيّاتها الخير بالنسبة للعالم كما أنّ أيٍّ منها قد يحمل الشرّ .

إنّ الطريقة البراغماتية في مثل هذه المشكلات هي محاولة تفسير كلّ فكرة بتتبّع أو اقتفاء أثر نتائجها العملية على حدة.

و السؤال الذي يطرحه البراغماتي في هذه الحالة هو : ما الفرق بين الذي يحدث لأيّ امرئ من الناحية العملية إذا كانت هذه الفكرة صحيحة بدلا من تلك ؟

فإذا اكتشفنا أنّه لا يوجد فرق عمليّ يمكن تتبّعه بين الإيمان بهذه الفكرة أو تلك فإنّ كلّا منهمخا في هذه الحالة يساوي الآخر و يصبح أيّ نزاع أو خلاف عقيما تافها لا جدوى منه.

إنّ الفكرة إذن في رأي جيمس تكون صادقة بمقدار ما تعمل وبمقدار استمرارها في العمل بنجاح و يقاس مدى صدقها و نجاحها بما تحقّقه من عائد مادّي مربح ، ومن هنا فإنّ الفكرة عند البراجماتيين

أقرب ماتكون إلى الفرض العلميّ ؛ فالعالم يتعرّض لتفسير ظاهرة ما مم الظواهر فإنّه يفترض او يقترح عدّة فروض لتفسيرها ويبدأ بعد ذلك في اختبار صحّة هذه الفروض و مسائله التجريبية المختلفة ، فما يفشل من هذه الفروض يستبعده فورا ، أمّا الفرض الذي ينجح بعد اختباره فسيكون بمثابة القانون العلمي المفسّر للظاهرة و الذي يمكن تعميمه ليصبح القانون المفسّر لكلّ الظواهر المتشابهة .

وقد يتساءل أحدنا : أليس معنى كلّ ما قلناه عن المنهج البراجماتي أنّه منهج لا يقبل إلّا الأفكار التي تحقّق نتائج ناجحة ومربحة و نافعة ؟

أليس هذا معناه أنّه منهج ينكر الإعتقاد بالقيم الأخلاقية و الدينية ؟

لقد شغل هذا التساؤل البراجماتيون الثلاثة ، وقد اختلفوا حول ؛ فبينما كان بيرس و ديوي أميل إلى قصر تطبيق المنهج البراجماتي في المجالين العلمي و العملي دون الحاجة إلى الخوض في مدى الإنتفاع به في المجالين ال\اخلاقي و الديني ، نجد جيمس قد وسّع ميدان تطبيق هذا المنهج ليشمل المجالات الأخلاقية و الدّينية ، فتميّز عن زميلية بإيمانه الدّيني الذي جعله يقيم البرهان على أنّ الإعتقاد في الله يقرّه المنهج البراجماتي ؛ حيث أنّ الإعتقاد في الله يحقّق لدى المؤمن قدرا عظيما من الراحة و السكينة و الطمأنينة ومن ثَمَّ التفاؤل بشأن المستقبل ، و هذا الأثر الذي يحدثه الإيمان هو أبلغ دليل في نظر جيمس على صدق الأفكار الإيمانية.

كلّ ما هنالك –يضيف جيمس– أننا يمكن أن نميّز بين الفكرة التي تحقّق الآثار العملية المباشرة أي تحقق المنافع الملموسة مباشرة ، و بين الفكرة التي تحقّق نفس الآثار العملية و لكن بطريق غير مباشر ، و الإيمان بالله من هذه الأفكار التي تحقّق آثارها العملية بطريق غير مباشر.

لقد تمكّن جيمس بهذه الطريقة أن يوسّع مفهوم البراجماتية بتأكيده على أنّها رغم إخلاصها للوقائع و الآثار العملية و المباشرة التي تحدثها الأفكار ، إلا أنّه لا يوجد لديها أيّ اعتراض ضدّ الإيمان بأفكار مجرّدّة .